الفصل السابع

في يوليو الناصرية.. وحكاية «ثورة» أم «انقلاب»؟!

ثورة 23 يوليو 1952 ، كانت الثورة العربية الأولى، التي استهدفت التغيير في الإقليم الذي قامت فيه تغييرًا يتناول الأسس، وقد نجحت في أمرين جد خطيرين: **أولهما**: قيام الثورة، ذاته. **والثاني**: في ثباتها واستقرارها.

كان قيام ثورة 23 يوليو، واستمرارها، في مصر، ردًا لاعتبار المصريين والعرب، وتعزية لهم على انهزام ثورة عرابي، أمام النظام الملكي المؤيد بالاستعمار الغربي.

إزاء التطورات بعيدة المدى ـ التي قامت بها ـ كان يجب أن ينحسم النزاع حول ما إذا كان ما وقع في 23 يوليو سنة 1952 ، ثورةً أم انقلابًا.

وكان حسب حركة 23 يوليو أنها أزالت الملكية فقط. لتكون ثورة. فالملكية المصرية هي أقدم الملكيات. نشأت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولم تنقطع قط.

ليس ثمة شك في أن ما جرى في ذلك اليوم كان ثورة، بكل ما في هذه الكلمة من معنى لأن الانقلاب، هو عمل مادي بحت يتغير به شخص الحاكم، فيذهب حاكم ويأتي غيره، دون أن يتغير شيء في نظام الحكم أو في أسسه.

«أما ما حدث في مصر بعد 23 يوليو، فيعد تغييرًا شاملًا، لم يدع شيئًا إلا وغيره، ولم يغير الهياكل الخارجية، والمظاهر فقط، ولم يغير الأسماء فقط، بل غير الجوهر تمامًا».

فتحي رضوان[48]

(48) من كتابه «72 شهرًا مع عبد الناصر» (عن دار الحرية ـ 1985).

هناك وجهة نظر ساذجة تقول بأن 23 يوليو 1952 انقلاب تحول إلى ثورة.

وهذه غير النظرة الزائفة التي تقول أن 23 يوليو 1952 بدأت انقلابًا واستمرت انقلابًا.. هي انقلاب في الأول والآخر!.

وسواء هذه الوجهة من النظر، أو تلك النظرة، فإن القائلين بهما ـ كلتيهما ـ لا يعرفون، حقًا، ما هي الثورة؟. ولا ما هو الانقلاب؟. ولا أيضًا ما هي الانتفاضة؟. ولا حتى ما الفرق بين الثورة والإصلاح؟.

لا يعرفون التعريف العلمي الصحيح لذلك كله، وإن كان بعضهم يدرك ويعرف، ولكنه يكذب ويزيف، لمصلحة وغرض.

إن الانقلاب هو استبدال أشخاص بأشخاص، يصلون إلى السلطة لتحقيق مصالح ضيقة لجماعة قليلة ما في المجتمع، سواء نفس الجماعة التي كان ينتمي إليها الحكام السابقون، أو أخرى تريد أن تحل محلها في التمييز والنفوذ. بل قد يكون انقلاب أولئك الأشخاص الجدد في بعض الحالات انقلابًا عميلًا لمصالح أجنبية مدعومًا بها.. (مثل انقلابي سوريا الشهيرين: انقلاب حسني الزعيم عام 1949، وانقلاب أديب الشيشكلي عام 1951 ـ أحدهما عميل للمخابرات البريطانية والآخر عميل للمخابرات الأمريكية ـ وانقلاب أوغستو بينوشيه في تشيلي عام 1973 للمخابرات الأمريكية، وما على الشاكلة نفسها من انقلابات عسكرية في أمريكا اللاتينية وغيرها).

بينما الثورة هي طليعة ثورية من قلب غالبية الجماهير تصل إلى السلطة، لتحقيق مصالح هذه الجماهير، سواء بحركة ثورية شعبية واسعة دفعت بهذه الطليعة إلى السلطة، أو بحركة ثورية بادرت إليها هذه الطليعة ممسكة بزمام السلطة وسط تأييد الجماهير لها، تأييدًا كاملًا لا لبس فيه على الإطلاق، ولا تخطئه عين (مثلما حدث في حالة ثورة 23 يوليو 1952، بوضوح وجلاء لا مزيد عليهما ومنذ أول يوم، لا يستطيع أن يجادل في ذلك أو يماري أحد!).

إن المهم والأساس هنا، الذي يجمع بين هذين النموذجين في الثورة: أي نموذج الثورة الشعبية التي تنجح في أن تدفع بطليعة ثورية إلى الحكم، ونموذج الطليعة الثورية التي تبادر وتتقدم وتنجح في الوصول إلى الحكم مدعومة بالتأييد الواسع الساطع للجماهير، المهم الجامع بين النموذجين: هو وصول المجتمع إلى درجة نضوج (الحالة الثورية) فيه، مما يستلزم «الثورة» حلًا وطريقًا وحيدًا لا بديل عنه.

وفي حين أن الثورة هي تغيير جذري وشامل، يصل إلى حد ضرورة هدم نظام مجتمع فسد وتحلل، آل مبناه إلى السقوط، وإلى حد ضرورة الإسراع في بناء مجتمع جديد على أسس جديدة ومفاهيم وقيم جديدة لصالح الجماهير، فإن الإصلاح هو الاكتفاء بالنظر إلى المجتمع كبناء لحقت به بعض الشروخ، ويمكن علاجها بمجرد الترميم. إن الثورة هي عملية جراحة كاملة ضرورية لا بديل عنها من أجل الشفاء والحياة، بينما الإصلاح هو تشخيص وتطبيب يرى في عقاقير ومسكنات معالجة كافية، ويمكن ـ في نظره ـ أن تستعاد معها الصحة والعافية.

وقد يكون الاصلاح في بعض المجتمعات، في حين من الأوقات، تشخيصًا سليمًا، لمجتمع يستطيع أن يصحح، وأن يصلح، ما يظهر به من أخطاء أو تجاوزات باستمرار (مثلما رأينا في مراحل أو فصول من ثورة يوليو على امتدادها من 1952 إلى 1970، كمرحلتها إثر أزمة وصدمة يونيو 1967). لكن الإصلاح في حالة بنية مجتمع اهترأت، وتتطلب ثورة بكل معنى الاصطلاح، يكون في هذه الحالة تشخيصًا وعلاجًا خائبًا وأحيانًا خائنًا!.

أما الانتفاضة فهي ثورة شعبية لم تكتمل؛ لأن شرط الاكتمال هو الوصول بطليعة ثورية من قلب جماهير الثورة الشعبية إلى السلطة، وإذا لم تتمكن الجماهير من ذلك فهي تظل انتفاضة مهما عظم شأنها.

وقد عظم ـ عن جدارة مؤكدة ـ شأن ما قامت به الجماهير وتظاهراتها الهائلة وحركتها الباسلة، في سنة 1919 على سبيل المثال، لكنه يظل حدث انتفاضة شعبية عظمى، وليس ثورة، لعدم التمكن من الوصول بطليعة ثورية للجماهير إلى

سلطة الحكم في مصر، لتحقيق أهداف حركة الجماهير، ومتطلباتها الكبرى في الاستقلال وإجلاء المحتل، وفي الديمقراطية الحقيقية، وفي العدل الاجتماعي.

إن أعظم حدث وأروعه على الإطلاق في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين هو انتفاضة 1919 الوطنية العظمى، وإن كان لا بأس أبدًا من أن يقال عنها «ثورة 1919»، اعتيادًا، واعتدادًا في آن.

كذلك فإن أعظم حدث وأروعه على الإطلاق في مصر خلال الربع الأخير من القرن العشرين، بل حتى ثورة 25 يناير 2011، هو انتفاضة 18 و19 يناير 1977 الشعبية المجيدة.

لكن الثورة الوحيدة ـ بالمعنى الموضوعي العلمي الدقيق ـ التي عرفتها مصر في القرن العشرين هي ثورة 23 يوليو 1952.

إن ذلك لا ينقص من قدر حركة الجماهير الشعبية في 1919، ولا من قدر حركة الجماهير الشعبية في 1977، فشعب مصر نفسه، بمختلف أجياله ـ على مدار قرنين من الزمان ـ هو الذي كافح بقيادة عمر مكرم ومحمد كريم، ثم كافح بقيادة أحمد عرابي والعرابيين، ثم بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد، فبقيادة سعد زغلول وفي إثره مصطفى النحاس، ثم بقيادة جمال عبد الناصر وثوار يوليو، فكل تلك الملاحم من الكفاح الوطني، والنضال الشعبي العظيم، هي حلقات الحركة الوطنية في التاريخ المصري الحديث والمعاصر، وهي حركات نضالية بطولية جسورة، تسلم المشعل كل واحدة منها إلى الأخرى، حتى تتحقق أهداف الشعب، التي تظل على الدوام، أهداف النضال الإنساني الكبرى: في الحرية والمساواة والعدل والتقدم.

ثم، إن الذين يقولون أن 23 يوليو هي انقلاب لا ثورة، وانقلاب عسكري، لمجرد أن الطليعة التي أقدمت كانت ترتدي «الكاكي»، فإنهم يقدمون نظرة لا تستحق الرد، لفرط ضحالتها؛ ولأنها بالتأكيد ليست لاعتقاد إنما لغرض، ومهما تحاول أن

تقنع أصحابها فإنهم لن يقتنعوا على الإطلاق، لأنهم لا يستعملون في الحوار عقولهم وإنما تحركهم مصالحهم!.

أما الذين يقولون أن 23 يوليو انقلاب تحول إلى ثورة، فهؤلاء يمكنك أن تحاورهم، ويكفي أن تقول لهم - إذا كانوا فعلًا يبحثون في تجرد عن الحقيقة - هل يوجد انقلاب في العالم تصر قيادته (مثلما أصر جمال عبد الناصر - قائد الثورة الفعلي - ورغم اعتراض الكثيرين، من بينهم حتى الذي اختاروه وجهًا أو واجهة للثورة اللواء محمد نجيب)، على تحديد ملكية الأراضي الزراعية، وتوزيع الأرض على جماهير فقراء الفلاحين بعد بضعة أسابيع فقط من ليلة الثالث والعشرين من يوليو، وتحقق ذلك بالفعل في التاسع من سبتمبر، أي بعد ستة أسابيع لا غير!.

الخلاصة هنا: أن ثورة 23 يوليو 1952 لم تبدأ انقلابًا، إنما حركة ثورية حقيقية، وهي بدأت مشروع ثورة شاملة، لكنها تحولت بالفعل إلى ثورة شاملة ذات جوانب متعددة، عندما انتهت أولى مراحلها الانتقالية وقادها قيادة كاملة جمال عبد الناصر (القيادة الحقيقية للثورة) ابتداءً من 1955، خصوصًا بعد أن تمكن من إنقاذ الثورة في مارس 1954 (وما عرف بأزمة مارس - التي نفرد لها الفصل التالي).

وخصوصًا أيضًا بعد تحقيق الجلاء والاستقلال الوطني الحقيقي الكامل في 1954، بعد عقود الاحتلال البريطاني الذي جثم منذ 1882، والذي كانت معركة الثورة الأولى في مجابهته، وأن (عليه أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل) كما أصرت الثورة آنذاك وعبرت على لسان قائدها.

وقد كان جمال عبد الناصر منذ الأيام الأولى بعد النجاح الكامل في ليلة 23 يوليو، يركز على هدف، وملف الجلاء (كان ملفه شخصيًا من أول لحظة)، وكان يعتبره قضية الثورة والشعب التي تسبق أية قضية ومقصد، وكانت الثورة تقوم بمفاوضات صعبة مع المستعمر البريطاني لإجلائه بعد احتلال طويل - استعمار طال ثلاثة أرباع القرن - وفي الآونة ذاتها كان يقوم أحد فرسان الثورة (المناضل كمال رفعت) بقيادة عمل فدائي عظيم يقض مضاجع الاحتلال ويحاصره، بألا

خيار أمامه الآن سوى الجلاء من فوره، حتى لم يلبث أن أُجبر بالفعل: على أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل!.

فهنا يمكن أن يقول أيضًا من يشاء، لمن لا يزال يتشكك:

هل يوجد «انقلاب» في العالم قضيته الأولى من أول يوم تحرير الوطن من المحتل الأجنبي، وحتى يتمكن من ذلك فعلًا وفي وقت قياسي، وسط ظروف صعبة ومعقدة على مختلف الجبهات في الداخل والخارج؟!

مواصلًا الشعب وثورته وقائده، الكفاح من معركة إلى معركة، وفي الوقت ذاته في أحيان كثيرة. من معركة مقاومة المحتل والجلاء، إلى معارك: كسر احتكار السلاح، ومحاربة الأحلاف والاستعمار القديم والجديد في كل صوره ومحاولاته المستميتة من أجل إخضاعنا وإدخالنا في مناطق نفوذه، والمساندة الشاملة لحركات التحرير في الجزائر وغيرها، وباندونج والحياد الإيجابي، والسد العالي والتنمية المستقلة والتصنيع الشامل ومجانية التعليم والتشغيل الكامل، و«تأميم قناة السويس ـ شركة مساهمة مصرية»، والتصدي باستبسال في معركة السويس وقيادة مقاومة شعبية وسياسية ـ تعد مثالًا بطوليًا نادرًا ملهمًا، يدرس ويحتذى، ومقاومة على جميع جبهات الوطن والأمة، الإقليم والعالم، في مواجهة مؤامرة ثلاثية كبرى جاءت بعدوان لثلاثة جيوش حديثة، بل إن اثنين منهما لإمبراطوريتين استعماريتين عُظميين (وإن لم يعد حالهما بعد معركة السويس كشأنهما بعدها أبدًا!).

هل يوجد «انقلاب» يفكر هكذا، ومن بدايته، من أول لحظة؟!

يقول «فتحي رضوان» ـ المناضل المثقف المبدع والقيمة الوطنية العظيمة في حياتنا وتاريخنا على مدى القرن العشرين ـ ساخرًا ممن يثيرون السؤال: «يوليو.. ثورة أم انقلاب: «حسب حركة 23 يوليو أنها أزالت الملكية فقط. لتكون ثورة.

فالملكية المصرية هي أقدم الملكيات. نشأت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولم تنقطع قط». وغير ذلك مما صدرنا به هذا الفصل، وغيره عبر صفحات كتابه[49].

وفي مواضع أخرى من كتب وكتابات وأحاديث للرجل.

من ذلك ما قاله في كتاب «المثقفون والسلطة في مصر» للناقد الكبير غالي شكري[50]، في حديث طويل مع مؤلف الكتاب ـ ضمن ما احتوت عليه الفصول من أحاديث ـ يقول على سبيل المثال، في تقويمه للثالث والعشرين من يوليو باعتبارها ثورة، بل ثورة كبرى، وفي حديثه عن قائدها:

«أحب أن أؤكد في منتهى الوضوح والحسم أنني استخدمت دائمًا حقي في نقد السلبيات والأخطاء أمام عبد الناصر، وأشهد أن عبد الناصر لم يضق، أبدًا أبدًا بأي نقد، لم يحدث مطلقًا أن ضاق صدره بأية ملاحظات أو تحفظات مهما بلغت قسوتها. هذه حقيقة للتاريخ».

ويقول على سبيل المثال:

«يجب أن أذكر الآن أنه لم يحدث في تاريخ مصر الحديث كله، أن امتلأ كيان الوطن بصوت وصورة وقرارات وإنجازات شخص واحد، كما حدث لنا مع جمال عبد الناصر. كل يوم كان هناك جديد. وكل فترة قصيرة كانت هناك مفاجأة. وتوالت الأحداث بسرعة شديدة. وهي أحداث بالغة الضخامة (ثم يذكر أمثلة، من «عزل فاروق» إلى «مؤتمر إنقاذ المقاومة الفلسطينية»، مستكملًا)... وهذه كلها مجرد عناوين عامة ناقصة كثيرًا، ولكنها ملأت حياة مصر والمصريين. وارتبطت هذه الحياة بشخص جمال عبد الناصر، فحين يُهزم لا تتخلى عنه هذه

(49) 72 شهرًا مع عبد الناصر. عن دار الحرية ـ 1985.

(50) دار أخبار اليوم القاهرة 1990، ص 206. 207.

الأمة، ولا تسمح لعدوها التاريخي أن يسقطه... «هذا ما حدث في 9 و10 يونيو غداة الهزيمة... «وفي يوم الجنازة لم تصدق أن البطل قد مات».

ويقول على سبيل المثال:

«في تقديري واعتقادي وتحليلي أثناء حياته وبعد وفاته، أن عبد الناصر أنجز لمصر ما لم ينجزه أي إنسان آخر، ربما من أيام مينا ومن قبل مينا. تأمل معي ثمانية عشر عامًا فقط تمحو العار عن الشرف المصري».

أما أحمد بهاء الدين، المفكر الكاتب الصحفي الكبير (والضمير) في حياتنا الثقافية على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين، فيكتفي بأن يقول باسمًا، مستسخفًا السؤال (23 يوليو: ثورة أم انقلاب؟):

«هذا السؤال أصبح أقرب إلى «النكتة». وليست له أي قيمة عملية مهما كانت الإجابة».

ثم قال بعدها لمن شاء التفرقة والمقارنة، معرفةً وعِلمًا:

«العرف السياسي جرى دائمًا على إطلاق وصف «الانقلاب» على استيلاء جماعة ما على السلطة، بقصد الاستيلاء عليها فحسب، دون أي تعبير عن قطاع من الشعب أو هدف من تغيير اجتماعي ما... كما جرى على إطلاق وصف «الثورة» على أي تغيير في السلطة، يستخدم فيه عنصر القوة، أيًا كان شكلها، إضراب عام، أو انفجار شعبي أو حركة عسكرية، أو أيدتها جماهير واسعة من الشعب، وكانت صادرة عن رغبة واسعة عميقة في الجماهير، وتستهدف تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية لصالح جماهير أوسع... وثورة 23 يوليو

لا يستطيع صديق أو عدو، مؤيد لما فعلت أو ناقد له، أن ينكر أنها غيرت الهرم الاجتماعي في مصر تمامًا»[51].

«هذا السؤال أقرب إلى.. النكتة».

كم أنت محق يا أستاذنا الغالي «بهاء الدين»!.

هل نختتم هنا بـ «جمال عبد الناصر» نفسه؟

يقول (في خطاب العيد الثالث عشر للثورة 1965/7/26):

«فرق كبير بين الثورة والانقلاب.. أما الثورة فهي الحصول على السلطة من أجل التغيير الواسع.. تغيير المجتمع من الواقع الذي يثور عليه إلى المستقبل الذي يطالب به.. قد تبدأ الثورة بالقلة، وإن كانت أهدافها تعبر عن أهداف الكثرة.. ولكن الثورة بالعمل والممارسة من أجل تحقيق أهدافها.. تصل إلى حد التعبير عن الكثرة وتصل من الاستثناء إلى الكثرة.. عمل الثورة يتسع ويكبر وتزداد المشاركة كل يوم وكل ساعة وكل سنة.. الانقلاب جماعة من الناس تتآمر بالمؤامرة أو المغامرة ويصلوا إلى السلطة، والسلطة هدفهم».

ما هي الثورة في مفهوم عبد الناصر؟. يقول (في العيد العاشر للعلم 14/12/1964):

«إن الثورة ليست فورانًا عاطفيًا، وإنما الثورة في أصالتها، هي علم تغيير المجتمع... ولا يتغير المجتمع بالغضب على ما كان فيه وعدم الرضا بالأوضاع التي سادته، وإنما يتغير المجتمع بتحليل القوى الاقتصادية والاجتماعية فيه، وإعادة تشكيلها على أسس جديدة لصالح أوسع الجماهير... ولو كانت الثورة مجرد فوران عاطفي لاستطاع البطش أن يطفئ نارها، ولكن النار في الثورة الحقيقية تبقى مشتعلة؛ لأن هناك أسبابًا حقيقية وعلمية تمنحها وقودها الذي لا يفرغ، طالما بقيت مسبباته... في المرحلة السلبية، في مرحلة الانقضاض

(51) عن كتاب أحمد حمروش - ثورة يوليو وعقل مصر مكتبة مدبولي القاهرة 1985، ص 67 - 68.

لإزالة أسباب التخلف والتعويق في مجتمع من المجتمعات، فإن الثورة هي الفهم العلمي للعلاقات الاجتماعية والإصرار على تغيرها... وفي المرحلة الإيجابية، مرحلة التحرك لبناء المستقبل وتحرير حوافز الانطلاق والتقدم في مجتمع من المجتمعات، فإن الثورة هي التخطيط العلمي».

ألا يتكلم هنا جمال عبد الناصر (أو يرسل لنا حديثه) عن ثورة شعبنا الجديدة؟

الثورة المتواصلة ذات الذروتين: 25 يناير ـ 30 يونيو (النار فيها تبقى مشتعلة: لأن هناك أسبابًا حقيقية وعلمية تمنحها وقودها الذي لا يفرغ ما دامت مسبباته باقية).

ألا يتحدث هنا جمال عبد الناصر (يعلمنا ويكلمنا) عن هذه الثورة الأصيلة الجديدة في مصر، ومثيلاتها من ثورات أصيلة (حقيقية) في أمتنا العربية وفي أي مكان؟

كم أنت دقيق، صادق، علمي، رائع يا معلمنا!